

## يوم القبض على الخنافس الروائي والكاتب عارف علوان وصديقه

د. جمال العتّابي 27/02/2019

[https://www.facebook.com/permalink.php?story\\_fbid=2344730712245004&id=100001242930075](https://www.facebook.com/permalink.php?story_fbid=2344730712245004&id=100001242930075)

في الصباح تتلون جدران الغرف التي يشغلها العاملون بأشعة الشمس التي تغزل ضفائرها فوق موجات دجلة الذاهب نحو الجنوب، ونحن يلزمنا وقت لنغني للنهر والصحو والظلال الهائمة بين أشجار الكالبتوس والساحل الرملي. في المساء تبدو أرصفة الشارع مملأى بمئات الشموع، والسماء كالبلور، يرفّ فيها القمر وهو يخطّ على هالته شكل البلاد

منذ أوائل سبعينيات القرن المنصرم شغلت (مجلتي) و(المزمار) الطابقين السابع والثامن في عمارة (الرواف) الجميلة والمطلّة على شارع أبي نواس. إنضم الكاتب والفنان عارف علوان إلى فريق العمل كمصمم، ويومها كان المطبوعان - على قصر التجربة - مثالين بالمعايشة الصافية، بين العاملين ورئيس التحرير الشاب إبراهيم السعيد، كانت التجربة مشروعاً يحمل أسباب نجاحه منذ لحظة ولادته في صحافة الطفولة العراقية، تلك المتمثلة بالثراء الكامن في الروح العراقية، وفي طاقات الكوكبة المبدعة من الرسامين والكُتاب، تجمعهم حرارة الإخلاص والقدرة الأوفى للعمل

حين نتجاوز في المكان، يفاجئني وجه عارف دقيق الملامح، وشعره الكثيف المنتثر بعفوية على جبهته العريضة، إذ لم يسعفه النعاس الذي مازال عالقاً في عينيه بعد من تصفيفه، صوت هاديء النبرات رقيق في تقاسيم وجهه وجع مرّ من فرط الحزن المكتوم بخجل، أتحايل فأقترب منه، لأدخل مدانته بسلام آمناً، أراوغ من أجل أن أجد الصمت والسكون المخيم على الصالة منذ الصباح، ماذا يخبيء هذا الشاب الرشيق من أسرار وهمهمات؟ أتساءل مع نفسي، غير أن أبواب قلب عارف تتفتح تلقائياً، حيثما تتصاعد أبخرة الشاي، فلا شيء كالصمت قادر على خلق شعور بالفراغ، سوى الشعور المعاكس من الود، لأنه يضيف على المكان لوناً من ألوان الصوت المجسّد، ويمدنا بقدرات الذاكرة الثقافية التي ترفض أن يبقى باب المكان الأثير مغلقاً، فبدأنا نشعر بمتعة الوجود معاً، تقاربنا وتحاببنا، ولشد ما يغريني أن يخرج عارف من عزلته، وتتحرك معنا موسيقى بمعادل هذا الداخل الذي يسمونه "القلب".

في ضحى يوم بارد، كنا قد خطونا خطواتنا الأولى نحو شارع السعدون، ننعم بدفء الشمس، كانت الصباحات مفعمة بوجد البنات، والنوافذ مشرعة للطيور، غير أن الشوارع يجتاحها (عسس) يقيم الحفلات ليحبس الكلام، ويعيد عصر الظلام، ويترصد الجمال، ويخطف المعاني والأحلام لم يمض وقت طويل لإصطيادنا في فخ أقامه (والي بغداد)، يستبجح فيه الورد وسيقان الصبايا الجميلات، إقتادونا إلى قفص حديدي مخصص لنقل نزل السجون، كأننا سبايا غزوات، وحشرونا على جدرانه مابين حمى الحقد وروح الإذلال، هاهي بغداد بنادق وكمان، تمضي بنا المركبة نحو شرطة السراي على بعد خطوات من شارع المتنبى

في عيني عارف ذهول، وفي صدره صرخة محبوسة، هاهي بغداد تعيدنا لإرث الصحراء، كانت الأيدي تلوح بـ(المقصّات) لجرّ شعر رؤوس (الخنافس) الذين تناولوا على أمن الدولة، وتمادوا في إطلاق شعرهم، كان المشهد اشبه بحفل (عرس) أقامه الغجر البائسون. دعوا رؤوسكم مطأطأة أيها (المتخثون)، هكذا تتعالى أصواتهم مثل سياط التعذيب، كان الصديق الكاتب جعفر ياسين قد سبقنا الى هذا (الحفل) ، ويومها تناقلت الصحافة احتجاجه الشجاع والمرّ: لو كنت أعرف ان شعر رأسي يقدّم حلاً لقضية فلسطين، لقطعت رأسي من أجلها

في تلك الدقائق لم أغادر عيني عارف اللتين خفتّ الضوء فيهما، وشحب وجهه، وكأن الموت أسرع إليه مبتهجاً ، فتجشأ أيامه وهو يبصق على الأرض (تقو يازمن .. تقو يا بلد)! موحش هذا الوطن يا صديقي، خاطبني نبوءة العارف: ستولد فيه الأوبئة، وتتسع فيه المقابر، سيمر زمنه ما بين حرب وحرب، وموت بطيء، وسيظل حزنه طالعاً من جذور نخيله، يتوزع بين القبائل والطوائف، ستكون أيامكم صاخبات، تذكّر ذلك يا جمال، لأنني سأغادره، وأدع الوطن بانتصاراته الكاذبة غارقاً في وهم أمجاده الغاربة .. وداعاً

منذ تلك اللحظة رحل عارف، وهجر الأماصي، والأهل والأصدقاء والذكريات، كانت بيروت محطّته الأولى ، ومنه إلى المغرب، ثم إيطاليا، وإستقر في إنكلترا عام 1990، كتب مسرحيات عدّة (هلاك بابل، لعبة المخدوعين، التتر قادمون، بحيرة كانجا)، وفي سنوات عمره الأخيرة كرّس جهده للرواية فكتب (محطة النهايات، غرفة البرتقال، الأضواء) وصدرت له بالإنكليزية روايتان (مخبر الشيخ، وشارع المصيدة الدبقة) فضلاً عن كتابة القصة القصيرة، وعشرات المقالات في الصحافة صدرت في بيروت بعنوان (نصوص) عام 1998

يشار إلى عارف علوان إلى أنه أحد الأسماء المهمة في ساحة الإبداع العراقي في المنفى، إمتاز بعمق الرؤية، وجمال اللغة والتعبير، جريئاً في الرأي وحرّاً في التفكير ونزعتة الإنسانية، إلا أنه لم يحظ بما هو جدير به من إهتمام نقدي. وعاش حياة صعبة إنتهت بموته بالمرض اللعين في آذار من عام 2017 إن بضعة كلمات أكتبها لم تعد قادرة على الوفاء لتاريخك ومنجزك يا صديقي، فلو كنت قادراً على جرح إحساسنا بلسان صمتك الأبدى، لأسمعنا مرّ العتاب على أوقاتٍ قضيناها معاً، كنت قلباً مفعماً بالحب يتسع لكل الناس، رحلت بصمت بعد أن تقطّع قلبك حشرات